

المدينة الحلم

من

من مراكش فى الجنوب، استمع إلى نداء الدار البيضاء المدينة العالمية كازابلانكا، فلا يمكننى إلا أن ألبى النداء. فى صباح يوم جمعة جميل مفعم بروائح البرتقال وبأصوات العصافير تحلق فى فضاء مئذنة جامع الكتبية، أتوجه إلى محطة قطارات مراكش وأحجز لنفسى مقعدا بقطار الساعة التاسعة المتجه إلى الدار البيضاء.

تخفت أصوات موسيقى الدقة المراكشية وصور ومشاهد ساحة جامع الفنا، وأنا أنظر عبر زجاج نافذة القطار إلى شمس المغرب التى اجتذبت إليها أدباء ورسامين ورحالة أجانب مثل بول بولز، تينيسى ويليامز، دولا كروا، ماتيس، إلياس كانيتى، وخوان جويتيسولو، وجان جنييه.

هنا أرض المغرب التى انتقلت إليها قبائل عربية مع الفتح الإسلامى الذى امتد إلى ثلاثين عاما منذ عام ٢٢ هـ «٦٤٠م» ، وفى القرن الثانى الهجرى عمد هشام بن عبد الملك الأموى إلى نقل كثير من القبائل القيسية المستقرة بالشام إلى بلاد المغرب بهدف تحقيق توازن بين العناصر العربية والبربرية، والعمل على دمجهم سويا فى الإطار العربى الإسلامى، وبهدف الحد من سيطرة القبائل اليمانية التى مثلت الغالبية من عرب بلاد المغرب. وفى منتصف القرن الخامس

الهجرى بدأت الهجرة الهلالية التي حركتها الدولة الفاطمية بعد انتقالها إلى مصر.

من هذه الأرض خرج الرحالة «ابن بطوطة» المولود في طنجة عام ١٣٠٤ هـ، الذي ذكر في رحلته أن أهل مدينة ظفار في جنوب الجزيرة العربية هم أشبه الناس بأهل المغرب وبعاداتهم. وفي كتاب «إلى من رحلة سرية» تحدث الألماني «هانز هولفويتز» عن شيء يشبه ما تحدث عنه «ابن بطوطة» قبل ستة قرون، مشيراً إلى وجود تشابه بين ألحان وأغاني الجنوب العربى وبين الموسيقى البربرية التي تمكن «كارل لخممان» من تسجيلها لدى قبائل افريقيا الشمالية: فالأغاني والألحان التي وجدت في موسيقى اليمانيين توجد أيضا في الموسيقى البربرية. لكن العامل الحاسم في وجود علاقة بين موسيقى الفريقين يقوم على الطريقة التي تنشد بها الأغاني، وهو عامل يزداد قوة بفضل فردية اللحن الموسيقى والتشابه في الألحان كلها وهو تشابه بارز كل البروز.

يضيف الألماني «هولفويتز»: الموسيقى ليست هي الدليل الوحيد على وجود علاقة بين قبائل البربر وأهل الجنوب العربى، فمن الحقائق البارزة أن هناك أبنية تشبه تلك التي تقوم في الجنوب العربى موجودة في أعالي الأطلسي وتحمل المظاهر المعمارية نفسها.

في مقال للكاتب الفلسطينى «محمد الأسعد» بصحيفة الحياة: من ملحوظات الرحالة الألماني هولفويتز تتضح سمات أساسية، فبالإضافة

إلى العادات التي لاحظها «ابن بطوطة»، تظهر الموسيقى والطرز المعمارية، ولا ندري أى جوانب أخرى يمكن أن تكشف عنها بحوث جادة تختلف عن ملحوظات الرحالة العابرة، من حيث إن حدود الهوية العربية كانت قد وصلت إلى مداها السكاني والجغرافي منذ أزمان مفرقة في القدم.

لكن المفارقة التي تجتذب نظر الكاتب «محمد الأسعد» هي أن انسياب المجموعات البشرية بين المشرق العربي والمغرب العربي وبالعكس قديما كان أكثر سهولة ويسرا مما هو عليه في العصور الحديثة حيث بدت الأرض والمسافات في القديم أصغر مما هي عليه في الزمن الراهن، زمن المواصلات السريعة وثورة الاتصالات والمعلومات.

ربما لهذا السبب عقدت مجلة «العربي» في الكويت ندوة بعنوان «حوار المشاركة والمغاربة» من أجل إثراء الثقافة العربية، شارك فيها باحثون وكتاب من المشرق والمغرب العربيين، في محاولة منهم للإجابة عن أسئلة تدور حول الإشكالية التاريخية والثقافية القائمة بين المشرق والمغرب.

ربما لصعوبة انسياب المجموعات البشرية بين المشرق العربي والمغرب العربي في الزمن الراهن، سعت ندوة «حوار المشاركة والمغاربة» إلى إقامة حوار على أسس صحيحة، تبرز فيه المساهمات التي قام بها المشاركة والمغاربة، بغية إثراء الثقافة العربية، على أساس من التنوع

لا الاختلاف، والتكامل لا التناقض، وبغية التحام الخبرات البشرية المعرفية ضمن النسيج الثقافى الواحد للعالم العربى؟.

يتوقف القطار فى محطة قطارات الدار البيضاء المدينة العالمية كازابلانكا، فأسرع بالنزول إلى الرصيف ومنه إلى فضاء الميدان. أحرق فى السماء وفى عين شمس منتصف النهار، فلا أجد غير صقر أسود اللون يحلق فى سماء المدينة البيضاء. أحرق فى وجوه العابرين فأجدهم يمشون الهوينى يلفهم صمت، ونظرات عيونهم تشى بشىء من حزن. أشير إلى إحدى سيارات الأجرة فتتوقف أمامى سيارة صغيرة إيطالية الصنع. أنظر فى عين السائق العجوز وأقول: باب مراکش. يومئ السائق برأسه، فأفتح باب السيارة واتخذ مقعدى إلى جواره، وقبل أن أتم إغلاق الباب كانت السيارة قد انطلقت بى بعيدا وسط سيل من السيارات الإيطالية والفرنسية الصغيرة.

عيناي تعانق الشوارع والبنىات والبشر الذين يسرون فرادى وفى شىء من التباطؤ. يلفت نظرى متجر صغير عليه لافتة تحمل اسم «المجنوب». استيقظ عصفور نائم فى قفص صدرى من زمن ورف بجناحيه ثم عاد إلى نومه ثانية. تذكرت «ثريا المجنوب» زميلة معهد البوليتيكنيك فى لندن التى قطعت علاقتى بها فى صباح يوم غائم بسبب الإرث الصعبدى الذى أحمله على ظهري ولم تفلح لندن فى أن تنسينى إياه أو أن تعالجنى منه طيلة أربع سنوات.

توقفت سيارة الأجرة وترجلت منها أمام باب مراکش. قذفت بنفسى

فى شوارع الدار البىضاء ووجهتى مسجد الحسن الثانى الذى شاهدته
من نافذة الطائرة التى أقلتنى من القاهرة إلى مطار محمد الخامس الدولى
بالدار البىضاء منذ أيام، قبل أن تهبط بى الطائرة لكى تقلنى طائرة
أصفر منها إلى مراكش.

أركض فى اتجاه البحر المحىط، الذى ىربض فوقه بقوة وجلال
وجمال مسجد الحسن الثانى، التحفة المعمارية الإسلامية، علنى ألحق
صلاة الجمعة به. تتراجع البنايات من خلفى وأجدنى وجهها لوجه أمام
المسجد الكبىر الجلىل الجمىل، واحداً ضمن آلاف ىغذون السىر فى
اتجاهه طلباً لسماع الخطبة وللصلاة جماعة.